على هامش التاريخ

انحطاطنا من نهضتنا

لاشك في ان أزهى وأزهر وأعظم عصر في التاريخ المغربي الحديث هو عصر المنصور الذهبي ، وقد ساعدته ظروف تقلده الحكم اكثر من كل شيء .

بويع صبيحة اعظم انتصار في احدى كبار وقائع حروب الدول المغربية : وقعة « وادي المخازن »أو« معركة الملوك الثلاث » ، كما يسميها الافرنج ، التي قتل فيها سبستيان ملك البرتقال وأُغرق فيها ابو عبد الله محمد السلطان المخلوع ومات اثناءها عبد الملك السعدي وقال فيها المؤرخ ابن القاضي في كتاب « المنتقى » : انها اشبه شيء « بغزوة بدر . » وبلغ عدد القتلى الى حد جعل صاحب « النزهة » يقول : ان النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفني من فني منهم ورأى اساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم اباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم .

لا أريد ان اتكلم هنا عن حياة المنصور وعصره ولا على نتائج وقعة « وادي المخازن » السياسية في داخل البلاد وخارجها ، وانا جد عليم بان هذه المفخرة لا تزال في احتياج كبير الى البحث والتنقيب والى اذاعتها كمفخرة وطنية .

ومن المعلوم ان افتداء اسارى تلك الوقعة اغدق على المغرب والمغاربة من الذهب والنفائس ما أغناه وأغناهم فوق الحاجة حتى صار المغرب بمنزلة « مصرف العالم » فحاولت امم اروبية كثيرة الاستقراض من خزائنه وصار ملكه يلقب « بالذهبي » (١) لكثرة ما لديه من هذا المعدن النفيس .

اما ما جاء للمنصور الذهبي من الهدايا والتحف عقب انتصاره وبيعته فنترك الكلام عليه الى الفشتالي صاحب مناهل الصفا: « فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يديه ، وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ثم تلته ارسال طاغية البرتقال وهو الريكي القائم بامرهم بعد هلاك سبستيان ... فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم الى فاس على الكراريص (العربات) والعجل فعجب الناس منها عجباً بليغاً وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وكان من جملة ما فيها ثلاثمائة الف دكات من ريال الفضة واما الطرف النفيسة والأثاث الرفيع فشيء لا يحصى ثم وردت ارسال طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التي انتزعها الطاغية من تاج آبائه وصنيدق مملوء من الدر الفاخر وقضب الزمرد وغير ذلك وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعني هدية البرتقالي وهدية الاصبنيولي ايهما اعظم ولم يهتد اهل العقل والمعرفة الى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت ارسال السلطان مراد العثماني ومعهم هدية وهي سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن ثم قدمت ارسال طاغية افرنسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة بباب المنصور والارسال تصبح وتمسي على اعتاب

(١) يزعم البعض ان لقب « الذهبي » لم يطلق على احمد المنصور الا بعد فتح السودان وقد ثبت انه لقب كذلك على اثر دخول ذهب افتداء اسارى وقعة « وادي المخازن » الى المغرب قبل فتح السودان بسنوات .

تلك القصور الى ان لم يبق احد ممن تتسوف النفوس اليه.»

ثم جاء «فتح السودان» فراد المغرب غنى على غناه واستجلب من معادنه وآجامه من الذهب والعاج ما جعل المنصور، كما قال اليفراني صاحب نزهة الحادي: «لا يعطي الرواتب الا النضار الصافي، والدينار الوافي.»

وياليته لم يستورد سوى الذهب والعاج، ولكنه، ويا للاسف! استجلب جيشاً من السود فيهم الذكر والانثى كباراً وصغاراً، حتى لم تبق في المغرب عائلة من كبار عائلاته التي كانت على رأس البلاد وليس فيها سوداني وسودانية على الاقل ففشى التسري مع السودانيات اللاتي عوملن معاملة الاماء رغم اسلامهن واخذ السوداني الاسود يتصاهر مع المغربي الابيض ويعقد للمغربي الابيض على السودانيات اللواتى ادخلن السحر بانواعه وخرافاته الى قلوب العائلات المغربية النبيلة...

فما كانت النتيجة ياترى من استجلاب الذهب والعاج وابناء السودان السود الى بلادنا واختلاطهم باهلها؟ لو انتبه سلفنا الى ماجنوا على انفسهم وعلى خلفهم مما ظهر آثاره بعد جيل أو جيلين من عصرهم لكانوا أول النادمين فان المغاربة لما استغنوا اذ ذاك عدلوا عن العمل والسعي وراء الاسباب فطغت الآجام والاعشاب على الارض الخصبة وتركت الاشجار للدود واخذت العناصر الجوية تلعب طليقة في القصور الجميلة والدور العالية وجعلت منها خرائب دارسة بعد ما كانت منازل عامرة وهاجر الناس الجيش ولم يبق فيه سوى الاجانب الماجورين وابناء السودان الذين جعل منهم «الحرس الاسود» فاصبحت الثغور شاغرة بلا حارس فريسة سهلة امام كل عدو وعرضة لكل طامع نهم ولكل هاجم ضار.

واستحوذ اللهو والفجور، ابنا الغنى ووالدا الفنا، على كل فكر ولب، فجاء الخراب بسرعة لا يعرفها البرق، وجاء ليل اطول من النهار الراحل، وجاءت ظلمة اسود من ظلمة القبر، ثم جاء اخيراً الجهل فوجد ارضاً واسعة ضرب فيها خيامه واحكم اوتادها في افكار آبائنا اولا وفي عقول ابنائهم فيما بعد، وها نحن الآن نعاني اشدّ العذاب في اقتلاعها وهي لم تتزعزع ولم تتحرك قيد انملة والله وحده أعلم بعدد الاجيال التي سيتقلص ظلها قبل ظله.

وقد حصلت مثل هذه الظاهرة لاسبانيا عقب فتحها لامريكا، بعد ما اكتشفها كلمبوس واستجلبت الذهب والغنى منها وسكانها لا يزالون يتضورون ويتخبطون للخروج من نتائج ذلك.

ثم ظهرت بعد جيل أو جيلين عواقب التسري بالسودانيات والتزوج من السودانيين وامتزاج الدم الابيض السامي الخالص الحار بالدم الاسود القح البارد واختلاط طبائع العمل والعبقرية بطبائع الكسل والفتور واسترضاع السودانيات لنا حليبهن الذي سرى فينا فبرّد ما في عروقنا من تلك الدماء التي جرى مثلها في عروق قادة وملوك وعلماء متفننين من العرب والبربر من احفاد سام.

هذه هي الاسباب التي جعلت من اجيال عديده بالمغرب اجيال هجنة فاسدة الاخلاق، وحتى الخلق غالبا، فاقدة المواهب الطبيعية التي جعلت من ابائها واجدادها قادة وسادة العالم، فشباننا شيوخ وشيوخنا موتى، هذه هي الاسباب التي جعلت على قلوبنا وافكارنا وعيوننا وبصائرنا وآذاننا غشاوة تحتاج لكشطها الى اجيال وهي لابد مع ذلك تاركة في خلفنا أثرها السيئ.

هذه هي الاسباب التي جعلت منا قوماً كسالى وما

كان اباؤنا بكسالى والتي جعلت الاجانب يظنون ان كل ما جاء به جدودنا ليس لهم بل من اعمال دخلاء اعتنقوا الاسلام ديناً واتخذوا العربية لساناً لهم أو كانوا مأجورين من ملوكنا .

والمحزن ، بعد هذا كله ، هو ان جل اعضاء طبقتنا البارزة — لا الراقية — باموالها ونسبها لا تزال غارقة في هذا اليم تأخذ لنفسها وتعطي لأولادها سراري اساود مسلمات قبل زواجهم خوفاً من... الزناء ويسترضعون اولادهم سودانيات أو يتخذونهن لهم مربيات او يعقدون عليهن لانفسهم .

هذا سبب ، أو أعظم اسباب انحطاطنا نشأ عن أزهر عصر تاريخنا تحت ملك أكبر سلطان دولة السعديين التي سمي عصرها ، بحق ، « بنهضة الاسلام » تحت حكم من يسميه المؤرخون : « بخليفة العلماء ، وعالم الخلفاء » ولو علم بما سينتج عن فعله اذ ذاك لاحتاط ولو ادى به الامر الى العدول عن فتح السودان .

***

ونحن نشاهد الآن آثار ونتائج التحام الانساب بعضها بعضاً في عجز امم جنوب امريكا السياسي والفكري وهذه الدول ليست الا مزيجاً من الهنود الحمر سكان امريكا الاصليين والمعمرين الاسبان والبرتقال وهو أقرب الينا يعاني الآن ويصارع عواقب الانحطاط التي فقست جراثيمه ايضاً في ابان نهضته العظيمة ايام كانت الشمس لا تغرب عن مستعمراته حيث اختلط وتزوج المهاجرون من البرتقال بالاهليات السودانيات او من الوان غير لونهم او دم غير دمهم .

ومن العجب ان وقع مثل هذا في المغرب بعد ابن خلدون بقليل وكان قد خصص فصولا ضافية في مقدمته تكلم فيها عما يعتري الانساب في اختلاطها من سوء ومفاسد بصفة واضحة ومثل لذلك بامثلة عديدة من تاريخ الاسلام وغيره وأيد رأيه باحاديث شريفة وأقوال للصحابة والخلفاء ماثورة ومعلومة لدى كل اديب وفقيه اذ ذاك وحتى اليوم .

***

اننا بشيء من العناية والاجتهاد نجد ونشاهد في علا كل شيء ونهضته أصل جراثيم انحطاطه ، ان العقول لا تشك حينئذ ولا تتهم شيئاً بسوء لأنها تكون لاهية أو نائمة في امن واطمئنان تامين ، بعيدة كل البعد عن التفكر في أن سنة النشوء والتحول الخالدة لن تتغير ولا تزال تعمل عملها بعد الموت ، تحسب ان ليس للاجيال والقرون نهاية مع أن ما بقي امامها من الحياة ايام معدوده ولها العذر : فالهواء دافيء عليل معطر ، والسماء مصحية قد انقشع عنها ضباب الصباح ، وعربة الشمس تطلع بهدوء شيئاً فشيئاً الى قمة دورتها ومجلاتها الذهبية تنير القبة الزرقاء ، ولكن حادي الجياد الرفيعة قد بدّل فصار « فيطون » ابن الشمس الطائش بشبابه بدل « فوبيس » كما قال الكونت دوغو بينو في احد كتبه الخالدة .

***

ولا اريد سوءاً أو مكروهاً باخواننا السود فان لهم ميزات وخصالاً ليست لنا وهم مسلمون مثلنا ، ولا فضل لمسلم على آخر الا بالتقوى ، وانما اردت لفت الانظار الى ما في امتزاج دمين مختلفين ، تمتزج بامتزاجهما الطبائع

والاخلاق من الضرر علينا وعلى بلادينا ، وها نحن نكابد عواقب ذلك وضرره فعلا بعد ذهاب الغنى وبقاء نسل واجيال هجان منحطة .

محمد حصار

— أفكار (هتليرية) او (كمالية) وعقول الشباب جوّالة ، والكاتب من خيرة الشباب وأكثرهم اطلاعاً وفهما ، وقد نشرنا مقاله من غير ان نمسه... بخير خدمة لحرية الفكر وتشجيعاً على الصدع بما في الضمير ، والا فلسنا على رأيه في شيء ، والموضوع هام ، وقد كتب المسلمون فيه قديماً واستعملوا الفاظا وعبارات غير عبارات الوقت ليس هنا محل ايرادها ، والاسلام دين وحدة لادين قومية ووحي سماوي لا ايجاس دم او وراثة .

هذا وانا لنشكر الكاتب البارع رغماً عن (اختلاط) الميتولجيا اليونانية في كتابته باللهجة العربية (على طريقة المجددين العصريين...) ذلك الاختلاط الذي ينقم على مثله في الدم شكراً جزيلا ونطلب منه ان يكتب وان يكتب كثيراً ولو في الشاذ من الاراء فان الافكار تولد الافكار والحركة كيفما كانت بركة .

(م.)

البقاء لله

في هذه الايام الاواخر فوجئنا بموت الفقيه المتضلع السيد الحاج العباس الكردودي احد رجال الخدمات والاعمال الجليلة بدار المخزن العامرة ، فكان المصاب به عظيما والاحتفال بمأتمه رهيباً محزنا ومشى في تشييع جنازته عدد عديد من رجال المخزن واعيان الرباط وغيرهم من محبيه الكثيرين .

ونحن بعد ابداء تأثرنا لموت هذا الفقيد الكريم وثنائنا على نزاهته ووداعته نرفع تعازينا فيه لعائلته المفجوعة به رزقها الله جميل الصبر والسلوان واغدق عليه سجال الرحمات والغفران .

***

— كما فوجئنا ايضاً بموت العالم المفضال السيد عبد الرزاق غطاس احد الموظفين الكبار بادارات الحماية والرجل من خيرة التونسيين الابرار وله في المغرب الاقصى خدمات واعمال كلها نزاهة واخلاص فنعزي فيه عائلته واقاربه واخوانه الكثيرين ونسأل الله تعالى ان يمتعه برضائه ورحمته .

التجارة والتجار

وفاءً بالوعد — ننشر بحول الله تباعاً تحت هذا العنوان سلسلة المقالات التي اتحفنا بها صديقنا الالمعي سيدي محمد المنجرة حسبما سبقت الاشارة منا الى ذلك شاكرين :

ان التجارة من أهم وسائل الحياة وبها قوام المعيشة التي هي الغاية المقصودة وقد عمت ببلادنا وكثرت بكثرة متعاطيها ووفد علينا من كل الامم والشعوب على اختلاف اجناسهم واتساع معارفهم مع ماهم عليه من الرقي والخبرة بالتجارة وطرقها وتقويم خلق التاجر واستعداده للجد والاجتهاد المطلوب منه حتما عدد وافر انتشر فى ارجاء القطر وأصبحنا بحاجة عظيمة الى بيان طريقتها وكشف النقاب عن حقيقتها ولا بد فى ذلك من كتابة توضح كيفية الخوض فيها والاسباب الموصلة اليها بأحسن وجه واكمل اسلوب لتكون نافعة ومفيدة للناشئة المحاولين الانخراط فى سلكها وتفهم معناها وما يجب عليهم فى ذلك من علم وعمل وخلق واقتدار وقد أهمل علماؤنا وكتاب عصرنا هذا الفن الجليل ولم يهتموا به ولا التفتوا اليه ناسيين أو متناسيين انه قوام الحياة واننا معشر المغاربة مفتقرون الى معرفة طرقه القويمة اكثر من غيرنا . وحيث كنت ممن طمحت أنفسهم لرقي التجارة رقياً مناسباً للنهضة الوقتية والاطلاع على مبادئها الحديثة لكوني ممن زاول مهنتها منذ الصغر أو مع الاسف بلا علم ولا تعلم ، بل بتدريج عادي من متعلم الى مبتدي ، الى متوسط في التقسيط الى تاجر متوسط ، وأسعدني الحظ بمخالطة أهل العلم والمعرفة بالتجارة وطرقها ووسائلها وأخلاق محترفيها وسلكت